

التذكار الثوري لرحله لامرتين الى الشرق



لامرتين في لبنان وسورية

قرز ١٨٣٢ - نيسان ١٨٣٣

بقلم ا. سركيس

٣

في الاراضي المقدسة

بعد التعرف الى استير استنوب ، اديرة الصحراء ، والى الامير بشير الشهابي ، صاحب لبنان ، كان من البديهي ان يميل لامرتين نظره شطر فلسطين والاراضي المقدسة ، التي كانت الداعي الاهم لمجيئه الى الشرق .

وهكذا كان . فبعد ان استراح في بيروت اياماً قليلة مع عائلته ، شد ركابه من جديد . وفي ٨ تشرين الاول اخذ طريق اورشليم ، عابراً بصيدا ، فصور ، فعكا المعاصرة اذ ذلك بساكر ابراهيم باشا ، فحيفا ، حيث زاره شاعر عربي « لبناني الاصل من سكان حلب »^(١) ، فتحدثا في الشؤون الادبية . ثم عرض عليه لامرتين ان ينظما في موضوع واحد ، وحفظ ترجمة القصيدة العربية في مذكراته الى جانب قصيدته^(٢) . ثم مر بقيصرة ، ويافا « السحرة المناظر ، المرضع الوحيد في الشرق الذي يحسن بشاق الطبيعة ان يشوا فيه . »^(٣)

وحلّ ضيفاً في دير الرهبان الفرنسيكان في صحراء . ياقا ؛ فساخبروه ان الطاعون منتشر في اورشليم وجوارها ، فلا يمكنه لذلك ان يدخلها . غير انه ابى ان يرجع ولم يتبرك بلم قبر المسيح ، ولو عرض حياته للخطر . وابى جميع رفاقه وخدامه ايضاً الا ان يرافقه .

١١ جز ١ : ٢٤٦

١٢ لم نثر في ما طالناه من شعر القرن الماضي على نص القصيدة العربي ، كما اتا لم نطلع ان نكشف القناع عن اسم صاحبها وشخصيته .

٣ الرحلة ١ : ٢٧٥

ولتلاحظ هنا ان لامرتين اعجب كل الاعجاب بجمال الطبيعة والحطب اللذين رآهما في البلاد الفلسطينية. وقد بلغ من اعجابه ان يفكر بالسكنى في فلسطين وبتأسيس مستعمرة زراعية فيها ، لما رأى من استعدادها للزراعة وقبول الحضارة والعمران . قال يصف ارض عكا : انها مخصصة ، جميلة المناظر ، « وهي ارض الميعاد ، حتى في ايامنا ، لو كان فيها ادارة قوية وحكومة مستقيمة . »^(١)

غادر لامرتين يافا مع حاشيته وفصيطة من الجند زوده بها حاكم المدينة . وعند المساء اكتحلت عيناه برؤية المدينة المقدسة « الباهرة بانوارها والوانها »^(٢) فصب خيامه خارج الاسوار ، حيث قضى ليلته . ولما اطلّ الصباح ، خلع نعليه ، وطلّى رجله بالزيت ، كيلا تعلق بها جراثيم الطاعون . ودخل الى اورشليم ، يقوده جنديان ، ارسلها الحاكم لهذه الغاية . وبعد ان قابل الحاكم ونال منه السماح بدخول المدينة متى شا . زار النبطات الدينية والمدنية وبعض الكنائس والآثار المقدسة . وكان قد امسى فعاد الى خيامه . وفي مدة ثمانية ايام ، لم يزل في خلالها معكراً على اسوار اورشليم ، طاف في المواضع التاريخية ، كالناصره والاردن واريجيا والبحر الميت ووادي موسى (Arabie Pétrée)

اما عن عراطفه الدينية في كل هذه الامكنة ، فحدث ولا حرج . فقد كتب منذ دخوله الحدود الفلسطينية ان « كثيراً ما كان يتبدل سفره بصلاة متحله »^(٣) . وقال بعد ان قضى ليلة في الناصرة « لقد نهضت مراراً كثيرة في الليل لارفع صوتي وعراطفي الى الله الذي اختار هذا المكان منشأ لابنه »^(٤) . واثبت وهو في صحراء الاردن « ان قلبه لم يصغ الى موضع في الدنيا بلذة . وسرور ، كما اصنى الى هذا الموضع . »^(٥) اما عن القبر المقدس فيقول :

« المسجي والنيلوف ، الاخلاق والمزنيخ ، كلهم يجب ان يروا في هذا القبر الحدّ الفاصل بين عالمين : العالم القديم ، والعالم الجديد . فهو مبعث فكرة جدت المكونة ، ومطلع مدينة حولت كل شيء ، ومصدر كل شيء . »^(٦)

وبعد ان طاف في جميع ما امكنه طوافه من الاراضي الفلسطينية ، وتبعك

(٢) الرحلة ١: ٤٠٩

(١) الرحلة ١: ٢٩٢

(٤) ١: ٢٩٧

(٣) الرحلة ١: ٢٩٢

(٦) ١: ٤٢٥

(٥) ١: ٢١٠

بالامكنة المقدسة ، عزم على الذهاب الى مصر . واذا برسالة من بيروت تفيد
عن صحة عائلته ، وفي ختامها حاشية من ابنته جوليا تقول فيها انها بشرق اليه
فيجب ألا يطيل سفرته بعد . فعدل عن رأيه واستلم طريق لبنان .

موت جوليا

بيد ان اسراً خطيراً كان ينتظره في بيروت ، بعد هذه الرحلة البعيدة .
فان المرض الذي رافق ابنته جوليا من فرنسا ، والذي كان يأمل شفاؤها منه
في هراء لبنان الجميل ، ظلّ يَنْهَكَ قواها سرّاً ، بينما كانت صحتها تتحسن في
الظاهر . وصل ابوها الى بيروت فاطهرت من السرور ببقائه ما ادشش العقول .
ورأى من تقدم صحتها ما فرح فواده . ولكن لم تضر بضعة ايام حتى ظهرت
اعراض المرض فجأة . وقبل ان يستريح لامرتين من اتعاب سفرته ويستمتع
كفاية بهذه البعثة ، صق قلبه بألم لم يستطع وصفه الا بالكوت عدة اشهر ،
اذ كان في ٢٥ تشرين الثاني من سنة ١٨٣٢ بحمل بين ذراعيه ابنته المحبوبة ،
جثة هامدة . فحفظها ليرسلها الى فرنسا حيث تدفن في مدافن آباءه ، حسب
رغبتها الاخيرة . وقد حفظ لها في قلبه موضعاً عميقاً ورائها بقصيدة من اجل
شعره ، نشرت في مذكراته دون ان يراجعه او ينتجها . وان رسائله ، التي
كتبها في هذا الشأن ، تفيض بالمواطف الرقيقة والالم الحقيقي . ولا عجب ، فقد
كانت جوليا وحيدة لا يوبها اللذين ابلغاها الى سن العاشرة بعناية تغلبت على
جرائم الامراض المتسلطة عليها . ولكن تغير الهراء الفجائي في بيروت عجل في
قطافها ولما تعرف جمال الحياة .

فن البديهي اذن ان يكون هذا الحادث الجليل انتصب عقبة كروّدا امام
وجه لامرتين ، فتمه اقام سياحته . وهكذا كان . فانه في بادئ الامر لم
يصغر إلا الى صوت حزنه ؛ وقصد الرجوع الى فرنسا باقرب وقت . ولكن
الشتاء كان قد دخل ، والمركب (L'Alceste) لا يرجع ليأخذه الا في الربيع .
فقضى في بيروت اربعة اشهر حزينا ، ضائع القرى : « حتى كاد اليأس يستولي

عليه ، واعتقد انه لاحق ، ولا شك ، بابتته الى القبر .^{١)}
 وما كان يزيد في حزنه والمه انه سيرت دون ان يخلف نسلًا ويتمتع
 بلذة الابوة .

وتضي عليه الاشهر الاربعة في وحشته ؛ نتحن نفسه الى الطبيعة التي اعتاد ان
 يجد فيها تعزيتته ؛ فيشد رحاله بقلب كبير ليطوف بقية البلاد السورية واللبنانية .

في الطول بعلبك

ترك لامرتين بيروت في ٢٧ آذار ، قاصداً بعلبك متصعباً . مع هذه المرة
 قريته الشكلي ، فباتا الليلة الاولى في حمانا حيث استقبلها شيخ القرية ، حسب
 اصول الضيافة العربية . ويشهد لامرتين « ان قصر هذا الشيخ يفوق بالاناقة
 والظرافة ونبل الظاهر كل ما رآه من الابنية في لبنان ، بعد قصر الامير بشير »^{٢)}
 ثم قام الى زحلة حيث نزل في مطرانية الروم الكاثوليك . وقدم له الاسقف
 كل ما سمح له فقر كرسه بتقديسه . ولعل لامرتين ألم بشي . من وصف هذا
 الفقر حيث قال :

« ان كل غنى الاسقف في زحلة يقوم ببعض كتب عربية وبونانية مبعثرة في غرفته ؛
 ومدودة عتيقة فيها اثوابه وبدلته المجرية »^{٣)}

لكنه ، على وجه الاجمال ، يمدح كرم اهل زحلة وحن استقبالهم وبشاشتهم
 للغريب . وفي ٣٠ آذار سار بقاقلته الى بعلبك .
 وهناك ايضاً اضاف اسقف الروم الكاثوليك .

ولكن في اي منزل ابيت افتر فلاح في فرسة افضل من مطراخانة بعلبك!
 بعض غرف حرمة يفصلها رواق متهدم : هذا قصر المطران اوالى جانبه غرفة
 اوسع قليلاً من البقية ، في صدرها مائدة من بقايا الهياكل المجاورة : هذه هي

١١ من احدى رسائله .

٢) الرحلة الى الشرق ٢ : ١٠٠ ، كل من زار حمانا اراه سكاخا يثاً قديماً محولاً الى متحف
 خاص بشاعرنا ، مثبتين انه المتزل الذي سكن لامرتين - ليلة واحدة بل اياماً عديدة -
 ولكن هذا الانياب ينتاج الى شي . من الجرامين ، ولاسيما اذا نظرنا الى هذه الاوصاف الفخمة
 التي سطرها لامرتين عن المتزل الذي بات فيه ليلة واحدة .

٣) الرحلة الى الشرق ٢ : ١٠٤

كاتدرائية مدينة الشمس ! تجتمع فيها العيال المسيحية القليلة ، المعثرة بين قبائل الاعراب المسلمين .

ولكن لا بأس . فليس هذا ما جاء لامرتين لاجله : انه بقرب اطلال بعلبك . وصل عند المساء ، وما كاد يقابل الاسقف مضيفه يبعث كلمات ودية ، ويتناول لقمة من الطعام ، واذا به بين الحرائب ، يتأملها على ضوء القمر ، فيفوس في بحر من التأملات والخواطر الوجدانية .

ويظهر مما قاله في وصف هذه الاطلال ، انها كانت في اوائل القرن الماضي ، حين زارها ، اقل خراباً واصح بكثير مما هي عليه اليوم .

لكن من الغريب ان لامرتين كان يستقصي تاريخ الامكنة التي يمر فيها ويتحقق من ثبوت الوقائع التي يذكرها ؛ حتى اذا تكلم عن بعلبك ، اكفى بالاختبار التقليدية المتناقلة .

نعم انه ينفي الاسطورة القائلة ان بابي بعلبك هو سليمان الحكيم . ويبرهن عن ذلك : اولاً بان مملكة سليمان لم تمتد حدود دمشق ؛ ثانياً بان سليمان ، لو امكنه ان يقوم بمثل هذا البناء العظيم ، لبني مثله في اورشليم ، حيث لا نرى بعد اثرًا للهيكل الذي شيده لاله اسرائيل . ولكنه لا يتصل الى معرفة بناء بعلبك الحقيقيين ، الذين اثبت التاريخ الحديث انهم اليونان والرومان . وينسب هذه الآثار العظيمة لعصر الجبابرة الاوائل . فيدون في مذكراته ان الاعراب اكدوا له وجود قبور ، بقرب بعلبك ، فيها عظام بشرية عجيبة في عظم حجتها ؛ ويأسف لكون الوقت لم يسمح له بزيارة هذه الآثار الغريبة وتفقدتها .

ثم يختم قائلاً :

« هما يكن من الامر ، فان البعض من حجارة بعلبك التي يبلغ طولها ٦٢ قدماً وعرضها ٣٠ وسماكها ١٥ ، هي اعظم الاجرام التي استطاعت اليد البشرية ان تحركها . » (١)

وفي اليوم الثاني ، انتقى من حجارة بعلبك بعض قطع تمهد له الاسقف بارسالها الى بيروت ، ليحملها الى اوربة « فيفني بها المتاحف ودور العلم » ؛ ثم التقى النظرة الاخيرة على هذا المتحف العظيم ، الضائم في رمال الصحراء . وولى نظره شطر دمشق .

في مصر

لم يكن في ذلك العصر عربات ولا سيارات ، فتقرب المسافة بين بعلبك والشام ؛ فكان لا بد للمسافر من ان يقضي بعض ايام على الطريق قبل الوصول الى عاصمة سورية . ولذلك كان سرور لامرتين وقافلته عظيماً اذ ظهرت لهم الـزبداني ، « تلك القرية الفتاة » . فدخلها بعد الغيب ، وخرج منها قبل الشمس « فكانت اذ ذاك اجمل في عينيه ما رآها عليه بالامس »^١ وبقى لو يحظى بمثلها في جميع مراحلها . والحق أنه لم يتكلم عن مدينة او قرية بالاعجاب واللذة اللذين تكلم بها عن الـزبداني ، اذ ظهر له من كرم اهلهما وحسن ضيافة شيخها ما سره وراحه .

وفي ٢ نيسان قبل ان يدخل دمشق غير اثاره الاوربية باثواب عريضة خالصة . وترت قريته بزبي السوريات الكامل ، كي لا يعرف الدمشقيون انها افرنج ، فيكون ما لا محمد عقبه . لأن « اهل الشام يكرهون اوردية الى حد انهم لم يقبلوا عندهم لا تناصل ولا مثلين لتلك البلاد المسيحية »^٢ واذ بلغ ابواب المدينة وجد في انتظاره رجلاً من تجار الشام ، افرنجي الاصل لكنه يخفي نسه تحت اسم ارمني ؛ وكان لامرتين قد تعرف اليه في اثنا رحلته . فاضافه في بيته وكان دليله الامين مدة اقامته في عاصمة سورية : فزار واياه كثيرين من رجالها وطوفه في جميع اثارها .

وان من يقرأ وصف لامرتين لدمشق ، ثم يتفقد احرامها في هذا العصر لا يجد كبير فرق بينها في الامس واليوم . فهي ، مثلاً ، لا تزال مشهورة بصنع الحلويات والمربيات ، واهلها دائماً رجال صناعة وتجارة ، محنكون في سياسة الامور ، يعرفون ان يدخلوا المشاريع الاقتصادية من ابوابها ؛ وشوارعها القذرة ، وجدان نيوتها الخارجية المبنية باللبن والطين ، لا تدل اقل الدلالة على جمال منازلها في الداخل ، من مجمرات وجنان ريش غني وترتيب ونظافة . هكذا رآهم لامرتين ، وهكذا لا تزال زواها اليوم في اكثر احيائها .

فلنسمه الآن يصف الجامع الامري قال :

« لقد شاهدت ساحة الجامع الكبير من احد ابوابه المطة على الشارع . كان هذا الجامع في الاصل كنيسة على اسم القديس يوحنا الدمشقي (١) . ويظهر لي انه وكنيسة القبر المقدس في اورشليم من بناء عصر واحد . فهو فسح ، بساهاظ المنظر ، على النسق البيزنطي ، المقلد النسق اليوناني تقليدًا فاسدًا ، حتى كانه مبني من بقايا اخرية عتيقة . اما ابواب الجامع الكبرى فمظانة باستار ثنوية . ولم استطع ان ارى الداخل ، لان المسيحي الذي يدنس الجوامع بدخوله اليها ، يمرض نفسه لحظر القتل . فاصكتفينا اذن بالوقوف قليلاً في الساحة بمجة اتنا نشرب من الحوض . (٢) »

واذا كان لامرتين لم يعجب ببناء الجامع الامري فقد وجد في دمشق ما

جعل يهتف :

« ان شبا يرسم هندسه وبشم بناؤه اثر اكاخان اسد باشا ، لا يمكن ان يموت فيه الروح الفني . (٣) »

وزاد في تقريره دمشق ، فقال ، وقد استيقظت روحه الشعرية .

« ليس على وجه البيطة مكان يذكر جنة عدن اكثر من دمشق . . . ما دام على الارض مالك دمشق تظل مدينة عطية . (٤) »

ثم احصى سكانها فكانوا اربع مئة الف ، حسب البعض ، او ثلاث مئة الف ، حسب غيرهم . اما المسيحيون فكانوا يعدون فيها ٣٠ الفاً ، على قوله . ولقد كان في عزمه ان يتم رحلته من دمشق الى تدمر . لكن انظار الطريق ، وطول هذه الفترة ، حوله عن عزمه ، لاسيما انه بعد رؤية بعلبك لم يكن ليظن انه يجد ما يلذه في تدمر .

فودع مضيغه والقليلين الذين تعرف اليهم ، وخرج ، لا متخفياً كما دخل ، لكن في حشد من الشعب ، بعضهم يجيئه بالابتدام وبعضهم يرشقه بالشتائم . وكانت الثلوج والامطار غزيرة ، فقام في رجوعه غداً كثيراً . وفيها هو على طريق بيروت ، وقد قطع زحلة رحمانا ، التقى بساعر يحمل اليه برية فرنسة ، وفيه رسالة من اخته تنيثه انه انتخب عضواً لمجلس النواب .

(١) والصراب على اسم القديس يوحنا الممدان . لكن الشعب السوري يسميها غلطاً الى الدمشقي . والحال ان هذه الكنيسة مبنية قبل مولده بزمن طويل . (٢) الرحلة ١٨٦:٢
(٣) الرحلة ١٨٦:٢ خان اسد باشا بناه اسد باشا العظم ، حوالي سنة ١٧٥٠ ، بعد بناء قصر العظم المشهور وموقعه في سوق البرورية
(٤) الرحلة ١٨٦:٢ .